- **أولاً: مدخل إلى التعبير القرآني:**

١- مفهوم (التعبير القرآني) لغة واصطلاحًا:

أمَّا التعبير لغة فهو من الجذر اللغوي (ع/ب/ر) الدال في أَصل اللغة على الاجتياز والوصول، ثم تطورت اللفظة لتكون دالة على التبيين والتوضيح، ويُقرأ بتشديد عينه: (عبَّر)، في حين نجد أنَّ لفظة تعبير على زنة (تفعيل) الدال في اللغة على الكلام والبوح؛ لأنَّ المراد به هو إيصال فكرة ما إلى المتلقي، فنقول:

- التعبير: هو القول.
- وقولهم: بتعبير آخر، تعني: بكلام آخر.
- يمتاز بقوة التعبير، تعني: القول ذو قوة ودلالة.
- على حد تعبيره: وفقًا لقوله وكلامه.

أمَّا اصطلاحًا فهو مجموعة من الألفاظ يختلف معناها مجتمعةً عن مجموع معانيها منفردة.

أمَّا القرآن لغة فهو دال على ضمّ الشيء إلى الشيء وجمعه، واصطلاحًا فهو كلام الله – عز وجلّ– المُنزَّل بواسطة الأمين جبريل إلى النبي (ﷺ) المنقول عنه بالتواتر المتعبّد بتلاوته.

وبعد بيان المفردتين يمكننا الآن تعريف المصطلح مجتمعًا فنقول: التعبير القرآني: مجموعة الألفاظ التي نزلت من عند الله – تعالى– على نبيه – صلى الله عليه وسلم– بواسطة جبريل – عليه السلام– وفيه أقصى درجات البيان والإعجاز والفصاحة.

٢- التعبير والنظم (نظرية النظم):

قبل البدء بشرح وبيان نظرية النظم لابدَّ من التعرّف على صاحب هذه النظرية ونقول: هو عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (ت٤٧١هـ)، ويُكنّى بأبي بكر، وهو واحد من أئمة اللغة، وواضع أصول علم البلاغة، وهو أحد أبناء منطقة جرجان الواقعة بين خراسان وطبرستان، وكان يقول أشعار رقيقة، واشتهر بمجموعة من الكتب، ومنها: أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز، والجمل في النحو، والتتمة، وإعجاز القرآن، والعمدة، والعوامل المئة، وغيرها.

أمَّا نظرية النظم فيرجع تأسيسها إلى عبد القاهر الجرجاني، وترتكز فكرة نظريته على أسس معينة، ولعلّ أهمها علم النحو الذي يُعنى بالألفاظ والتراكيب، ويُقصد بالنظم توخّي معاني النحو وفقاً للأغراض التي يُصاغ منها الكلام، وبالتالي فإنّ معاني النحو هي التي تتعلّق بالفكر، ولا يقتصر النظم على تتابع النطق بالألفاظ، فلو كان هذا هدفه لاستوى الجميع في حسن النظم وسوئه، إلّا أنّه يُقصد به أيضاً تناسق دلالات الألفاظ، وتلاقي معانيها على الوجه الذي يقتضيه العقل، ولذا فإنّ النظم يُعنى بالمعاني وليس الألفاظ، فالألفاظ هي التي تتبع المعاني.

أمَّا أركان نظرية النظم فتتكوّن من أربعة أركان رئيسة، وهي كالآتي: التقديم والتأخير. الحذف. الفروق. الفصل والوصل.

ويُعدّ كتاب دلائل الإعجاز أحد أشهر مؤلفات الجرجاني، إذ قاده للتوصل إلى نظريته المشهورة والتي تُعرف بنظرية التعليق أو نظرية النظم، وقد سبق الجرجاني علماء عصره في هذه النظرية، والتي لا تزال إلى اليوم تُدهش الباحثين المعاصرين، وتقف في موقف قوي أمام نظريات اللغويين الغربيين في العصر الحديث، ويُشار إلى أنّ الجرجاني كان يهدف من كتابه دلائل الإعجاز إلى الردّ على من يزعم أنّ إعجاز القرآن الكريم نابع من الألفاظ، ورفض اعتبار الإعجاز بسبب المفردات والمعاني، أو جريانها على الألسن، كما رفض إرجاع الإعجاز إلى

الاستعارات، أو المجازات، أو الفواصل، أو حتّى الإيجاز، ولكنّه عدَّ سبب إعجاز القرآن الكريم هو حسن النظم، ولا تعنى نظرية النظم بمعاني الكلمات المفردة إذا لم تنتظم في سياق تركيبي مُعيّن، وترى هذه النظرية أنّ الدلالة المعجمية معروفة لدى معظم أهل اللغة، ولكنّ مستخدم اللغة يسعى إلى دلالة اللفظ التي تكتسبها خلال نظمها وفقاً لسياق تركيب العبارات، وذلك لأنّ اختلاف دلالة اللفظ يتبع التركيب النحوي الذي تنتظم به، وكذلك المواضع المختلفة للفظة في السياقات الناتجة عن أصل سياقي واحد.

- ثانياً: ظواهر التعبير القرآني في المفردات:

١- الترادف والفروق:

- الترادف:

لفظة الترادف مشتقّة من الرَّدْف، وهو التتابع في اللغة، ويعرف اصطلاحًا بأنه توالي وتتابع الألفاظ المفردة على معنى واحد، وذلك بأن يدل لفظان أو أكثر على معنى واحد دلالة حقيقية أصيلة، أي ورود لفظين أو أكثر مختلفين في الاشتقاق، متفقين في المعنى، بحيث يدلان عليه دلالة حقيقية، بدون فروق بينهما، وفي هذا المقال حديث عن مسألة الترادف في القرآن الكريم بين المؤيدين والمعارضين، وذكر أمثلة على الترادف في القرآن الكريم وتوضيح الفروق بين الكلمات التي أشير إليها بالترادف.

يعدّ الترادف كما سلف ظاهرة لُغويّة، من العلماء من قبلها ومنهم من لم يقبلها في اللغة، أما في القرآن الكريم فلا ترادف بين ألفاظه، فهو كتاب أُحكمت آياته، وفصلت معانيه، فكل لفظة من ألفاظه وضعت في مكانها لتدل على المعنى الدقيق من استعمالها فكل معنىً فيه بلغ ذروة الفصاحة والبلاغة، ويعد استعمال لفظة قريبة من لفظة أخرى من باب الإعجاز البياني، وقد ناقش العديد من البلاغيين المعاصرين مسألة الترادف وبينوا الفروق الدقيقة بين ألفاظ القرآن الكريم التي اعتبرها البعض مترادفة، وقد بينت الدكتورة عائشة بنت الشاطئ الفروق الدقيقة بين مجموعة من الكلمات القرآنية المتقاربة وهي: الرؤيا والحلم، وآنس وأبصر، والحلف والقسم وغيرها، وكذلك فقد ذكر الدكتور فضل عباس الفروق الدقيقة بين الكلمات المتقاربة: الخوف والخشية، والفعل والعمل، القعود والجلوس وغيرها، وفي الفقرة التالية ذكر أمثلة على الترادف في القرآن الدقيق وبيان الفروق الدقيقة بين الكلمات، لنعلم أنه لا ترادف بينها.

- **الفرق بين العام والسنة:**

العَامُ والسَّنَة من الكلمات التي يظنّها الناس من المترادفات، ولكن عند الإنعام في استخدامات الكلمتين يمكن للناظر أن يجد الفرق بينهما، فالْعَامُ يطلق على الدّعة والرّخاء، وَالسَّنَةُ تطلق على الشدة والكرب والضيق، ومن ذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ}، وقال تعالى: {قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ}، أما في العام فقد قال الله تعالى: {ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ}.

- **الفرق بين آنس وأبصر:**

يرى الكثير من اللغويين أن كلمتَيْ آنس وأبصر مترادفتان، ومعناهما واحدٌ وهو رؤية الشيء، وقد استخدم القرآن الكريم الكلمتين وبما أنه لا ترادف في القرآن الكريم فلا بُدَّ من معرفة

الفروق الدقيقة بينهما. وردت كلمة أبصر في القرآن الكريم عدة مرات فعلًا ماضيًا، وفعلًا مضارعًا، وفعل أمر "أبصرَ، يُبصر، أبصرْ"، وكلّها بمعنى الإبصار سواء أكان الإبصار رؤية عينية أو كان بصيرة قلبية، والوقفة في هذا الجزء على كلمة "آنس" التي وردت بصيغتها الفعلية ستّ مرات، فوردت خمس مرات فعلًا ماضيًا، ومرة واحدة فعلًا مضارعًا، وقد وردت أربع مرات في قصة سيدنا موسى عليه السلام عندما أبصر النار على جانب الطور، وهو عائد من مدين إلى مصر بقوله تعالى:

- {إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى}.
- {إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ}.
- {فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ }.

فعندَ استحضار ما مَرّ به موسى –عليه السلام– قبل أن يجدَ النار لوُجِد أنه تائهًا في الظلام والبرد والحَيرة، وبينما هو في هذه الأحداث أبصر ورأى نارًا مشتعلة بجانب الطور الأيمن، فاستبشر بها خيرًا، حيث رجا أن يجد عندها أحدًا يدله على الطريق، أو أن يأخذ من النار قبسًا ليصطلي عليه أهله، وبذلك فإن موسى –عليه السلام– لم يبصر النار بعينيه مجرد إبصار، فقد كان إبصارًا وزيادة، عيناه أبصرت النار واطمأن قلبه بها وانشرحت نفسه له واستأنست مشاعره وأحاسيسه بها، فكان مع الأنس استبشار وطمأنينة وسكينة ورجاء، وكل هذه المعاني لا توجد في أبصر من جانب الطور نارًا، وإنما توجد في آنس من جانب الطور نارًا. وعليه، فإنّ كل إيناس إبصار، وليس كلّ إبصار إيناسًا، فإن رأى الإنسان ما يسرّه ويستبشر به ويأنس إليه يقال: آنَسَهُ، وإن رأى ما لا تسرّه رؤيته ولا يأنَس إليه يُقال رآه أو أبصره.

٢- الفاصلة القرآنية:

القرآن الكريم كتاب معجز في حدِّ ذاته، فهو معجز في آياته وتراكيب كلامه، ومما يزيد إعجازه إعجاز وجود الفاصلة القرآنية التي تختم بها الآية القرآنية بكل إبداع وإتقان، وعرَّف الفاصلة القرآنية ابن عاشور بأنها: "الكلمات التي تتماثل في أواخر حروفها أو تتقارب، مع تماثل أو تقارب صيغ النطق بها، وتكرر في السورة تكرراً يُؤْذِن بأن تماثلها أو تقاربها مقصود من النظم في آيات كثيرة متماثلة"، ومن علماء القرآن من عرّفها بأنها: " كلمة آخر الجملة، أي آخر كلمة في الآية"، وجاء الدليل على تسميتها بالفاصلة القرآنية قوله تعالى: {كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ}، وقد ذكر العلماء أهمية الفاصلة القرآنية وأخذت الحظ الأكبر في بعض كُتبهم وتفاسيرهم، قال القرطبي: "الفواصل القرآنية حلية وزينة الكلام المنظوم" ومما ذكره الشوكاني في تفسيره مع بيان أهمية الفاصلة القرآنية وكيفية نظمها لآيات القرآن المثال الآتي: قال تعالى: {وَكَانَ رَسُولا نَّبِيًّا} فكان الأنسب في هذه الآية ذكر الأعم قبل الأخص بمعنى "نبيًّا رسولا" لكن لبيان إبداع الفاصلة جاءت هكذا؛ ولأنه كان انتهاء الآية السابقة واللاحقة بياء وألف قال تعالى: {لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا}، وقوله {وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا}، وهذا مما يجعل من الفاصلة القرآنية بأنها جملة من إعجاز القرآن الكريم.

ومن فوائد الفواصل القرآنية:

أولا: اطراد الإيقاع: إذ نجد القرآن يغير من بنية الكلمة كي يطرد الإيقاع ويتحقق التطريب كما في قوله تعالى: {وَطُورِ سِينِينَ} وهو طور سيناء لقوله تعالى: {وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ}، لكن (سينين) تطّرد إيقاعيًا مع (والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين ...)، وكذلك يحذف حرفا كي يطّرد الإيقاع كقوله تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ} وأصل الفعل (يسري)، فحُذفت لام الفعل (الياء) دون جازم، وبقيت كسرة الراء دالة عليها؛ وما ذاك إلا ليطّرد الإيقاع باتحاد صوت الراء (الساكن حال الوقف) في الفواصل قبلها وبعدها. وكذلك تأخير ما

أصله أن يقدم كقوله تعالى: {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى} في سورة طه، لأن مبنى الفواصل فيها على صوت الألف، وأصل الكلام أن يتصل الفعل بفاعله ويؤخر المفعول لكن أخر الفاعل وهو موسى لأجل رعاية الفاصلة، وللتأخير حكمة أخرى قيل إنها تتمثل في أن النفسَ تتشوق لفاعل أوجس.

ثانيًا: التمكن من التطريب: لذلك خُتمت أكثر مقاطع الفواصل بحروف المد واللين وبُنيَ أكثرها على الميم والنون لما فيهما من غُنة وتطريب؛ ففي ختم كلمة المقطع من الفاصلة بحروف المد واللين وإلحاق النون تطريب يجري على عادة العرب؛ فقد كان بعض العرب يترنمون ويمدون أصواتهم بالقوافي تطريبًا، يقول سيبويه رحمه الله: (أما إذا ترنموا فإنهم يُلحِقون الألفَ والواو والياء ما يُنوَّن وما لا يُنوَّن لأنهم أرادوا مد الصوت). ويقول الزركشي: (وناس من بني تميم يبدلون مكان المَدَّة النون).

٣- الحروف المقطعة :

هي الحروف الهجائية المقطعة التي افتتح الله بها بدايات السور، تقرأ بأسمائها في التهجي على التقطيع والفصل، وبدء هذه السور بالحروف المقطعة يقيناً له حكمة من الله سبحانه وتعالى، وهي سر من أسرار القرآن، ومن حكم القرآن أن يبدأ بالحروف المقطعة، وقد تحداهم الرسول –صلى الله عليه وسلم– أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولكنهم عجزوا وما عرفوا كيف يردون عليه –صلى الله عليه وسلم– وهذا دليل على أنهم عجزوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن، ولم يقدروا أن يأتوا بمثله، فالقرآن الكريم هو إعجاز من الله –سبحانه وتعالى– وقد بلغت السور التي وردت بها الحروف المقطعة تسعاً وعشرين سورة، بلغت في مجموعها أربعة عشر حرفاً، جمعها بعضهم في قوله: "نص حكيم له سر قاطع"، قال –تعالى–: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.

ومن هذه السور ما افتتحت بحرف واحد، ومنها افتتح بحرفين، ومنها بثلاثة، أو أربعة، أو خمسة، وجاء تقسيمها على النحو الآتي:

٤- السور التي افتتحت بحرف واحد وهي ثلاث سور: سورة ق، وسورة القلم، وسورة ص.

٥- السور التي افتتحت بحرفين وهي تسع سور: طه، النمل، يس، غافر، فصلت، الزخرف، الدخان، الجاثية ، الأحقاف.

٦- السور التي افتتحت بثلاثة حروف وهي ثلاثة عشر سورة: البقرة، آل عمران، يونس، هود، يوسف، ابراهيم، الحجر، الشعراء، القصص، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة.

٧- السور التي افتتحت بأربعة حروف، وهي سورتان: الأعراف، والرعد.

٨- السور التي افتتحت بخمسة حروف، وهي سورتان: مريم، والشورى.

اختلف العلماء في تفسير معنى الحروف المقطعة؛ فمنهم من رد علمها إلى الله –سبحانه وتعالى–، ومنهم من فسرها، والذين فسروها اختلفت أقوالهم فيها كالآتي:

٩- أسماء السور.

١٠- فواتح افتتح الله بها القرآن.

١١- أنها من أسماء القرآن.

١٢- قسم أقسم الله به، وهو من اسماء الله تعالى.

١٣- حروف استفتحت من حروف هجاء أسماء الله –تعالى–.

وقال بعض أهل العربية: هي حروف من حروف المعجم. لكل كتاب أنزله الله –سبحانه وتعالى– سر، وسر القرآن الكريم هو في الحروف المقطعة في فواتح السور. وقد أخبر الله –سبحانه وتعالى– عن هذا القرآن، أنه قرآن حكيم لا يأتيه الباطل، قال –تعالى–: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾،[٥] والمؤمنون يعرفون

أن هذه الأحرف لها سر من الأسرار، وقد أنزل الله –سبحانه وتعالى– هذه الأحرف لحكمة، فلا مانع من أن يعرفوا بعض هذه الحكم،

ومنها أن القرآن من جنس الحروف التي يتكلمون بها، ولذلك فالغالب إذا ذكر هذه الحروف ذكر بعدها إشارة إلى القرآن الكريم، وقد ذكرت هذه الحروف بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، فقد أقسم الله –سبحانه وتعالى– بالقرآن هذا الكتاب الذي نزل على سيدنا محمد –صلى الله عليه وسلم–؛ بأنه هو الكتاب الذي نزل من عند الله –سبحانه وتعالى– لا ريب فيه.

٤– تجسيد اللفظ للمعنى:

فالقُرْآن يتأنق في اختيار ألفاظه، ويضعها في الموضع الذي تؤدي فيه معناها بدقة، بحيث لا يصلح فيه سواها؛ ولذلك لا تجد في القُرْآن ترادفًا، بل كل كلمة تحمل معنى جديدًا، ولا تجد في القُرْآن كلمة معيبة من حيث صورة اللفظ، (حروفه، وحركاته، وسكناته)، ولا استعماله، ولا تجد فيه لفظًا قلقًا مضطربًا أو نابيًا في موضعه.

قال ابن عطية: (كتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد، ونحن تبين لنا البراعة في أكثره، ويخفى علينا وجهها في مواضع؛ لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وميز الكلام).

وتحقيقًا لانتقاء الألفاظ وعذوبتها في القُرْآن، فإن القُرْآن يعمد إلى تهذيب ما قد يعاب من الألفاظ إذا دعا داعٍ بلاغي لوروده (اللفظ) فيه؛ ولهذا ترى في القُرْآن كلمات وألفاظًا يشهد الذوق بحسنها؛ لأنها هذبت ووضعت وضعًا محكمًا، بينما تراها في غير القُرْآن معيبة شاذة.

ذلك كلمة (ضيزى) بمعنى (جائرة)، وهي من أغرب ما في اللغة من الكلمات، بله القُرْآن، ولم يستعملها عربي فيما وصل إلينا من أقوالهم وأشعارهم، وبالرغم من ذلك فقد استعملها القُرْآن الكريم، ووُجد لها حُسن في القُرْآن أضعاف ما لها من الغرابة في غيره.

قال تعالى موبخًا أهل الشرك: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢].

- ثالثًا: ظواهر التعبير القرآني في التراكيب:

١- التقديم والتأخير:

إن الدارس للنحو العربي لا بد أن يتعرض لمسائلَ تتعلق بالتقديم والتأخير، كتقدم الخبر على المبتدأ، وتقدم المفعول على الفاعل. إلا أن هذه الظاهرة اللغوية ليست متعلقة بالدرس

النحوي فحسب، بل هي متعلقة بالبلاغة بشكل أكبر، ذلك أن للتقديم والتأخير أغراضاً بلاغية متعلقة بالسياق ومقتضياته.

ومثال ذلك في القرآن قول الله تعالى: (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم) (الأنعام: ١٥١)، وقوله تعالى: (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم) (الإسراء: ٣١)، ففي الأنعام تقدم الوعد برزق الآباء قبل الأولاد وفي الإسراء تقدم الوعد برزق الأولاد قبل الآباء، فما السر في ذلك؟! للإجابة عن هذا السؤال يَحسُن أن نقدم بمقدمة يسيرة عن التقديم والتأخير في اللغة العربية.

إن التقديم والتأخير ظاهرة لغوية تنقسم إلى قسمين، الأول: تقديم اللفظ على عامله كتقديم الخبر على المبتدأ ومثاله قوله تعالى: (له الملك)، أو تقديم المفعول به على الفعل والفاعل كقوله تعالى: (إياك نعبد) وله أسباب عدة أهمها الحصر والاختصاص فالملك خاص بالله عزَّ وجل، وكذلك العبادة لا تكون إلا لله عزَّ وجل، والقسم الثاني: تقديم اللفظ وتأخيره على غير عامل، وذلك لأسباب عدة يقتضيها المقام وسياق القول، والحاصل أن التقديم إنما يكون للعناية والاهتمام. فما كانت به عنايتك أكبر قدمته في الكلام. والقرآن الكريم أعلى مثل في ذلك، فإنا نراه يقدم لفظة مرة ويؤخرها مرة أخرى على حسب المقام، فنراه مثلاً يقدم السماء على الأرض ومرة يقدم الأرض على السماء ومرة يقدم الإنس على الجن ومرة يقدم الجن على الإنس ومرة يقدم الضر على النفع ومرة يقدم النفع على الضر كل ذلك بحسب ما يقتضيه القول وسياق التعبير، وفي هاتين الآيتين قدم الرزق للآباء في الأنعام وأخر الأولاد، وفي الإسراء قدم الأولاد على الآباء.

والسبب في ذلك أن آية الأنعام جاء فيها النهي عن قتل الأولاد بسبب الفقر بدليل قوله تعالى (من إملاق) فالفقر واقع على الآباء لذلك اقتضى السياق أن يكون الوعد للآباء بالزرق قبل الأولاد، أما السياق في آية الإسراء جاء فيه النهي عن قتل الأولاد خوفاً من الفقر بدليل قوله تعالى: (خشية إملاق) الذي لم يقع عليهم بعد ولكنهم يخافونه بسبب كثرة الأولاد، فاقتضى السياق تقديم الوعد برزق الأولاد قبل رزق الآباء، وذلك من تمام بلاغة القرآن، وفي هذا المعنى قال أبو حيان في البحر المحيط: (وجاء التركيب هنا – أي في الأنعام– (نحن نرزقكم وإياهم) وفي الإسراء (نحن نرزقهم وإياكم)، فيمكن أن يكون ذلك من التفنن في الكلام.

ويمكن أن يقال في هذه الآية جاء (من إملاق) فظاهره حصول الإملاق للوالد لا توقعه وخشيته وإن كان واجداً للمال فبدأ أولاً بقوله: (نحن نرزقكم) خطاباً للآباء وتبشيراً لهم بزوال الإملاق وإحالة الرزق على الخلاَّق الرَّزاق، ثم عطف عليهم الأولاد، وأما في الإسراء فظاهر التركيب أنهم موسرون وأن قتلهم إياهم إنما هو لتوقع حصول الإملاق والخشية منه فبُدئ فيه بقوله: (نحن نرزقهم) إخباراً بتكفله تعالى برزقهم، فلستم أنتم رازقيهم وعطف عليهم الآباء وصارت الآيتان مفيدتان معنيين، أحدهما: أن الآباء نُهوا عن قتل الأولاد مع وجود إملاقهم، والآخر: أنهم نُهوا عن قتلهم وإن كانوا موسرين لتوقع الإملاق وخشيته، وحمل الآيتين على ما يفيد معنيين أولى من التأكيد) انتهى كلامه.

٢- مناسبة المقام:

تعد فكرة "مطابقة الكلام لمقتضى الحال" الفكرة الجوهرية التي لها أثرها في توجيه البحث البلاغي وتحديد كثيراً من مساراته، ونظرة إلى تراثنا البلاغي في شتى عصوره تكشف لنا بوضوح مدى الاهتمام بتلك المطابقة، حتى جعل البلاغيون للمطابقة من تعريفاتهم لعلوم البلاغة الحيز

الكبير، فعرِّف علم المعاني: بأنَّه:(علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال) وعرِّف علم البيان بانَّه: (معرفة إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه) بل عرفت البلاغة بانَّها:(مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته) وعلى هذا نستنتج أنَّ لمقتضى الحال أهمية كبيرة في الفكر البلاغي .

أمَّا مصطلح (الحال) فقد كان يرادف في أغلب استعمالاته مصطلح (المقام) فكلا المصطلحين يطلقان ويراد بهما : (مجموعة الاعتبارات والظروف أو الملابسات التي تصاحب النشاط اللغوي أو تلابسه، ويكون لها تأثيرها في ذلك النشاط من خارجه بحيث لاتتحدد دلالة الكلام أو تتجلى مزاياه إلاَّ في ظلها، وفي ضوء ارتباطه بها)، وللمقام جذور تضرب في أعماق لغة العرب الكامنة في مثلهم الشائع أنَّ (لكلِّ مقام مقال)، ومن البلاغيين من يستشهد بقول النبي(ﷺ) : (نحن معاشر الانبياء أُمرنا أن نعامل الناس على قدر مقامهم)، أو كلام سيدنا عثمان حين تولى الخلافة، وكان حيياً (رضي الله عنه) فوق المنبر فتوقف عن الكلام ثمَّ قال: (إنَّ أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالاً)، أو الاستشهاد بقول الحطيئة وهو يستعطف سيدنا عمر(رضي الله عنه) في إطلاق سراحه بعد أن حبسه لقوله الشعر باطلاً على الناس :

تحنن عليَّ أيّها المليك فإنَّ لكل مقام مقال

لقد عرفت الحال في تراثنا البلاغي بانَّها: (الأمر الداعي للمتكلم إلى أن يميِّز كلامه بميزة تعبيرية خاصة)، والحال –حينئذٍ– تشمل أموراً كثيرة منها:

أ- أحوال المخاطب:

أحوال المخاطب يتنوع الكلام بتنوعها، فذكاؤه وغباؤه، وتردده أو إنكاره، وطبقته الاجتماعية، وطبيعة ثقافته، كل ذلك وغيره يؤثر في الكلام وتنوعه، بل إنَّ بلاغة الكلام لاتتمثل إلاَّ في مطابقته لها ومشاكلته إياها، وفي ذلك يقول السكاكي: (ومقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر) .

ب- طبيعة المعنى أو الغرض:

الأغراض تتعدد ولكل غرض من الأغراض مايلائمه من صور ومايليق به من أشكال تعبيرية لاتليق بسواه، يقول القاضي الجرجاني: (ولا آمرك بإجراء الشعر كلِّه مجرى واحداً، ولا أن نذهب بجميعه مذهب بعضه، بل أرى لك أن تقسم الألفاظ على رتب المعاني فلا يكون غزلك كافتخارك، ولامديحك كوعيدك.... بل ترتب كلاً مرتبته، وتوفيه حقه، فتلطف إذا تغزلت، وتفخم إذا افتخرت، وتصرف للمديح تصرف مواقعه) .

ج- مجموعة الظروف والاعتبارات الخارجية الداعية إلى الكلام أو المصاحبة له:

للظروف والاعتبارات الخارجية تأثير كبير على الكلام فسبب النزول، والمناسبة التي قيلت فيها قصيدة، والبيئة الزمانية والمكانية للنص، وما إلى ذلك من اعتبارات لايمكن إغفال اثرها في الكلام .

د- أحوال المخاطب:

في واقع الحال إنَّ (حال المتكلم) هي المرد الأول والجوهري للمطابقة، فالاحوال الثلاثة السابقة هي بمثابة (الواقع الخارجي) للتجربة، ذلك الواقع الذي لايكون العمل الفني رصداً آلياً مباشراً له، بل تصويراً فنياً لرؤية المبدع له، وانفعاله الخاص به

، وموقفه المتفرد منه، وقد اغفل البلاغيون والنقاد إلى حد ما جانب المتكلم وأحواله عند رصد مطابقة الكلام البليغ، وركزوا تركيزاً لافتاً على أحوال المخاطب .

وإنَّ الحال التي عرفها البلاغيون هي –في الحقيقة– الامر الداعي للمتكلم إلى أن يميِّز كلامه بخصوصية تعبيرية ما، وتلك الخصوصية هي التي أطلقوا عليها (مقتضى الحال) .

أمَّا الخصوصيات التعبيرية فالمراد بها:(ظواهر الأداء النحوي: التقديم والتأخير/ الذكر والحذف/ التعريف والتنكير/ وما إلى ذلك من ظواهر يعنى علم المعاني في البحث عنها) على اعتبار أنَّ كل هذه الخصوصيات مقتضيات تتنوع بتنوع الاحوال أو المقامات، يقول الساكي: (وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به، وهو الذي نسميه مقتضى الحال) .

* وظيفة المقام واشتغاله:

١– إنَّ من المقطوع به أنَّ المقام يعد بمثابة الضوء الكاشف الذي لابد من استصحابه عند الدخول في غور النص .

٢– معرفة مقام العمل الادبي والوقوف عليه، هو خطوة ضرورية ينبغي أن تسبق محاولة الوقوف على معناه واستشفاف دلالته الفنية .

٣– بدون المقام يستغلق النص ومن الصعوبة– حينئذٍ– فهمه وإدراك دلالته .

ولكي نفهم وظيفة المقام لابد من أخذ مثال توضيحي يبيِّن دور السياق في تحديد المعنى وتوجيهه، ثم بيان أثره في تحليل قيمة الظواهر التعبيرية في الاسلوب الفني، مثال ذلك الموازنة بين قوله تعالى:﴿ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ فصلت: ٤٠، وقول النبي(ﷺ): ((لعلَّ الله اطلع على اهل بدر فقال: اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم))، فالناظر لجملة فعل الامر (ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡۖ)

الواردة في النص الكريم، وتلك الورادة في حديث النبي(ﷺ) (اعملوا ماشئتم) يقف على معنى واحد لأوّل وهلة يقرأ فيها الجملتين، لكنَّا في السياق تعطي معنى آخر غير الذي أوحت به سالفاً، فعل الامر في النص القرآني خرج إلى معنى التهديد والوعيد؛ لأنَّ الآية الكريمة نزلت في حق جماعة ضالة منحرفة انطوت قلوبهم على الحقد والضغينة، فاندفعوا يحرِّفون كلام الله، بدليل ماسبق فعل الامر من سياق قوله﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فصلت: ٤٠، أمَّا جملة فعل الأمر الواردة في حديث النبي(ﷺ) فخرجت لمعنى الإباحة قصداً للتكريم جزءاً لعطائهم وبذلهم فهم السابقون (رضي الله عنهم) .

٣- التوسع في المعنى:

ما هو مفهوم التوسع في القرآن الكريم؟ التوسّع في المعنى هو أن يؤتى بتعبير يحتمل أكثر من معنى وتكون كل هذه المعاني مُرادة وهناك مواطن للتوسع في القرآن الكريم كما سبق شرحه في سورة البلد في معنى كلمة (حِلّ) وقلنا أنها تعني مستحل وحلال ومقيم أو حالّ وهذه المعاني كلها مرادة في الآية. وكذلك في قوله تعالى (فلا اقتحم العقبة) وقلنا أنّ (لا) محتمل أن تكون داخلة على المستقبل أو يراد بها الدعاء أو حرف الاستفهام محذوف أو غيرها. وللتوسع في القرآن الكريم أسباب ومواطن.

مواطن التوسّع:

* الألفاظ المشتركة: يوجد في القرآن الكريم ألفاظ تشترك في المعنى مثل كلمة (جائر) على سبيل المثال هل هي اسم فاعل من (جأر أو جار) ؟ وكذلك كلمة (سائل) هل هي من سأل أو سال؟ هناك كلمات إذًا تحتمل أكثر من معنى كما في كلمة العين يذكر لها أكثر من معنى فهي

تحتمل أن تكون الجاسوسة أو عين الماء أو أداة الإبصار. وكذلك تكثر في الحروف مثلاً (ما) هل هي استفهامية أو تعجبية أم ماذا؟ هل هي نافية؟ يمكن أن تقع في تعبيرات تحتمل عدة معاني في آن واحد فإذا أريدت كل هذه المعاني يدخل في باب التوسّع.

ونأخذ أمثلة من القرآن الكريم:

قال تعالى في سورة القمر (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ {٥٤}) كلمة (نَهَر) لها دلالات مختلفة منها السَعة في الرزق والمعيشة وفي كل ما تقتضيه السعادة سعة فيه. ومن دلالاتها أيضاً الضياء لأنهم يقولون أن الجنة ليس فيها ليل ومن معاني النَهَر في اللغة أيضاً مجرى الماء. الآية في سورة القمر تحتمل كل هذه المعاني وهي كلها مرادة. ومن الملاحظ في القرآن كلّه أنه حيثما جمع الجنّات جمع الأنهار إلا في هذه الآية، فقد ورد في القرآن قوله تعالى (جنات تجري من تحتها الأنهار) وجود كلمة تجري هنا تدل على أن المعنى المطلوب هو مجرى الماء. وفي آية أخرى قال تعالى (فيها أنهار من ماء غير آسن) وجود (غير آسن) في الآية تفيد جريان الماء لأن الماء لا يأسن إلا إذا في حالة الركود وغير آسن قرينة الجريان. أما في آية سورة القمر جاءت كلمة (نهر) بدون قرينة (في جنات ونهر) وهي وردت في المتقين وهم المؤمنون وزيادة لذا جاء بالنهر وزيادة كما قال المفسرون. والمعنى المُراد في الآية أن المتقين في جنات ونهر بمعنى في ماء وضياء وسعة وقد ورد في الحديث الشريف (الجنة نور يتلألأ وريحانة تهتز قصر مشيد) وهم في سعة من العيش والرزق والمنازل وما تقتضيه السعادة السعة فيه وهذا من التوسّع في المعنى ولم يؤتى بأي قرينة تدل على معنى واحد فلم يذكر تجري أو غير آسن أو أي قرينة أخرى تحدد معنى واحد للنَهَر وإنما كل المعاني مُرادة.

٤- التصوير الفنّي:

من أَكثر مباحث الإعجاز القرآني التي تم تسليط الضوء عليها في القرن العشرين؛ مبحث التصوير الفني؛ إذ ألف بعض الباحثين مصنفات مختلفة في هذا المجال منهم الدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ) وسيد قطب، ودراسة التصوير الفني في القرآن تقوم على إدراك تقنية التصوير والتمثيل والتشبيه في الآيات أو كيفية رسم الآيات لمشهد ما، سواء كان نفسياً أم طبيعيًا أَم سرديًا، ومن ثم استشعار أثر التصوير في إيصال المعنى وتعميقه.

يقول سيد قطب: «إن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن،...، فهو تصوير باللون وتصوير بالحركة، وتصوير بالتخييل، كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون في التمثيل، وكثيراً ما يشترك الوصف، والحوار، وجرس الكلمات، ونغم العبارات، وموسيقى السياق، في إبراز صورة من الصور، تتملاها العين والأذن والحس والخيال، والفكر والوجدان». بمعنى آخر إن التأمل في التصوير الفني في آيات القرآن الكريم هو الذي يبعث الحيوية في تدبر الآيات، ويستحضر المعاني والمشاهد ويجسدها ماثلة في وعي القارئ والدارس للقرآن الكريم.

ويمكننا تأمل أحد نماذج التصوير الفني في الآية ١٦٤، من سورة البقرة التي تتضمن تصوير مشهد طبيعي في قوله تعالى {إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماءٍ فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابةٍ وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآياتٍ لقومٍ يعقلون}، فهذه آية واحدة (بالموازين القرآنية) ولكنها تضمنت دلالات تصويرية لا محدودة تتطور من الوصف الحسي المجرد إلى الوصف السردي الحيوي.

فقارئ الآية يستطيع تخيل منظر طبيعي لجزء من البحر بين السماء والأرض تسير فيه السفن وتكون على ضفته يابسة. ثم تدب الحركة في المنظر حين تتعاقب حركة الليل والنهار التي ستحول المنظر إلى مشهد تسير فيه الفلك صاخبة بحركة الناس والعمال الذين يسعون إلى

ما ينفعهم وتغير فيه ألوان الأرض والسماء والماء بين إشراقة النهار وظلمة الليل، ثم يتعالى ضجيج الأصوات في المشهد بتزايد المكونات الحيوية فيه، حين يسقط المطر وتحيا الأرض فتنتج المزروعات التي بها يحيا البشر ودواب الأرض. فيدخل المشهد في حالة سردية كونية تشي بقصة الأرض التي عماد الحياة فيها دوران الأفلاك وسقوط المطر اللذين يضبطان حركة المخلوقات وإيقاع الحياة على الأرض. إنها آية قصيرة لكن آثار التصوير التي اكتنزت بها جعلتها سيرة مختزلة تتراءى للقارئ ماثلة أمام عينيه وملء سمعه.

وفي القرآن آيات كثيرة يمكن أن يتأملها القارئ من باب التصوير الفني، منها الآيات السردية في قصص القرآن، ووصف مشاهد يوم القيامة والجنة والنار، وتصوير الحوارات الداخلية والمتبادلة بين المشركين والمؤمنين وغيرهم.

- رابعًا: ظواهر التعبير القرآني المشتركة بين المفردات والتراكيب:

١- الحذف والذكر:

الذكر والحذف في الحروف:

من روائع البيان القرآني المعجز أنه يحذف حرفاً من بعض ألفاظه في موضع ويذكره في موضع آخر، وحذف هذا الحرف ليس حذفاً اعتباطياً كما أن ذكره ليس مصادفة عشوائية إنما ذكره لحكمه وصرفه لحكمه.

وهناك أغراض يذكرها النحاة في هذا الباب فيقولون: زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى إلى غيرها من الأغراض النحوية العربية وفي القرآن نجد من هذا كثيراً ولكن يحكمه التوازن الدقيق ليس في بعض أبوابه بل في كل أبوابه.

ولننظر إلى بعض الأمثلة في حكمة ذكر أو حذف بعض حروف الكلمات في القرآن الكريم.

المثال الأول: "تسطِعْ" و"تستطع" .

وردت هاتان الكلمتان في قصة موسى والخضر حيث رافق موسى الخضر وأمره بعدم سؤاله عما يفعله فكان يفعل أموراً يرى موسى أن الخضر فيها مخالفاً فينكر عليه فقال له بعد إنكاره الفعل الثالث:) هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ([الكهف:٧٨ بإثبات التاء] .

ثم نبأه بتأويل أفعاله وأخبره أنه لم يفعل ذلك من تلقاء نفسه)وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي (" ثم قال له:) ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ([الكهف: ٨٢] بحذف التاء.

وجه الإعجاز البلاغي هنا أن المرة الأولى كان موسى في قلق محيِر جرّاء أفعال الخضر فراعى السياق القرآني الثقل النفسي الذي يعيشه موسى عليه السلام فأثبت التاء ليتناسب مع الثقل النفسي لموسى، الثقل في نطق الكلمة بزيادة الحرف.

وحذفه في المرة الثانية بعد زوال الحيرة وخفة الهم عن موسى ليتناسب خفة الهم مع خفة الكلمة بحذف الحرف الذي ليس من أصل الكلمة.

المثال الثاني: "اسطاعوا" و"استطاعوا":

جاءت هاتان الكلمات في سورة الكهف في الحديث عن السد الذي بناه ذو القرنين على يأجوج ومأجوج وأنه بعد أن بناه عليهم كي يمنع فسادهم أرادوا الخروج فحاولوا تسلق السد

فلم يفلحوا ثم حاولوا أن ينقبوه أو يخربوه فلم يستطيعوا كذلك، قال تعالى:) فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً ([الكهف : ٩٧].

فلماذا حذف التاء في الأولى وأثبته في الثانية ؟ . يظهر والله أعلم أن ذلك ليتناسب مع السياق فتسلق السد شيء لطيف يحتاج إلى لطف وخفة فناسب حذف التاء والنقب والخراب شيء ثقيل يحتاج إلى جهد وقوة ومعدات ثقيلة فناسب ذكر التاء ليكون ثقل الكلمة مناسب لثقل الفعل وخفة الكلمة مناسب لخفة الفعل[١](١) فسبحان القائل:)قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً([الإسراء: ٨٨].

الذكر والحذف لبعض كلمات الآية:

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهاً) [النساء : ١٩] مع أن أكثر المنهيات كانت تلي حرف النهي مباشرة كقوله تعالى: "ولا تقتلوا أولادكم" وقوله : (ولا تقربوا الزنى) وقوله: (ولا تقربوا مال اليتيم) المنهيات، ففي هذه الآية لم يقل لا ترثوا النساء كرهاً بل قال "لا يحل لكم..الخ".

وعند البحث عن نظائر هذه الآية كقوله تعالى: {لايحل لكم أن تأخذوا مما أتيتموهن شيئاً}[النساء:٢٢٩]. يبدو والله أعلم أن هذه الكلمة إنما يأتي بجانب قضايا كان الناس يزاولونها من دون أن يروا بها بأساً أو حرجاً كالقضايا السابقة بل كانت عادات منتشرة بين العرب، أما بقية المنهيات الأخرى كالقتل والزنى وأكل مال اليتيم وغيرها فهي أمور تنفر منها العقول السليمة والطباع المستقيمة وتنكرها الأعراف السائدة لا يقرها عقل ولا شرع لذلك كان النهي عنها مباشراً لما جبل في الفطرة على النفور منها بخلاف الأشياء السابقة المقررة عندهم فتحتاج لترسيخ التحريم ألفاظاً قوية حادة قاطعة . فانظر إلى جمال التعبير القرآني لهذه الأمور حتى لا يساورها

شك في التحريم؛ فهذه فروق عجيبة في التعبير أعجزت أفصح البلغاء عن معارضته سبحان العليم الخبير .

٢- **التكرار:**

هو تكرار كلمة أو جملة أكثر من مرة لأغَراض متعددة كالتوكيد ، والتهويل ، والتعظيم ، وغيرها .

- أنواع التكرار:

قسَّم التكرار الوارد في القرآن إلى نوعين :

- **تكرار اللفظ والمعنى:**

وهو ما تكرر فيه اللفظ دون اختلاف في المعنى، وقد جاء على وجهين : موصول ، ومفصول : أما الموصول: فقد جاء على وجوه متعددة :

أ- إما تكرار كلمات في سياق الآية قال الله تعالى: (هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ)

ب – وإما في آخر الآية وأول التي بعدها قال الله تعالى: (وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا، قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً)

ج – وإما في أواخرها، قال الله تعالى: (كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكّاً دَكّاً)

د- وإما تكرر الآية بعد الآية مباشرة، قال الله تعالى: (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

وأما المفصول: فيأتي على صورتين .. إما تكرار في السورة نفسها ، وإما تكرار في القرآن كله .

أ- التكرار في السورة نفسها، قال الله تعالى: (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) تكرر في سورة الشعراء ٨ مرات ، قال الله تعالى: (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) تكرر في سورة المرسلات ١٠ مرات، قال الله تعالى: (فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) تكرر في سورة الرحمن ٣١ مرة .

ب – التكرار في القرآن كله، قال الله تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}.

تكرر ٦ مرات : في يونس (٤٨) و الأنبياء (٣٨) والنمل (٧١) وسبأ (٢٩) ويس (٤٨) والملك (٢٥) .

ثانيًا: التكرار في المعنى دون اللفظ: وذلك مثل قصص الأنبياء مع أقوامهم ، وذِكر الجنة ونعيمها ، والنار وجحيمها .

- فوائد التكرار في القرآن: يمكن أن نوجز فوئدَ التكرار فيما يأتي:

١- التأكيد: هو إعادة اللفظ أو مرادفه لتأكيد معنًى قال الله تعالى:﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى . ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴾

٢- زيادة التنبيه، قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ . يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ﴾، لزيادة التنبيه فإنه كرر النداء وذلك حتى يلقي الكلام القبول .

٣- تجنب النسيان أو السهو فالكلام إذا طال وخشي تناسيه أعيد ثانية وذلك تجديدا له، قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فهذا تكرار للأول، قال الله تعالى: ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ﴾، فقوله (أنكم) الثاني بناء على الأول، إذكارًا به خشية تناسيه.

٤- التعظيم والتهويل، قال الله تعالى: ﴿ الْحَاقَّةُ . مَا الْحَاقَّةُ ﴾، وقوله تعالى:﴿ الْقَارِعَةُ . مَا الْقَارِعَةُ ﴾.

٥- الوعيد والتهديد، قال الله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وذكر "ثم" في المكرر دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغُ من الأول، وفيه تنبيهٌ على تكرر ذلك مرةً بعد أخرى، وإن تعاقبت عليه الأزمنة لا يتطرق إليه تغييرٌ، بل هو مستمر دائمًا.

٦- التعجُّب، قال الله تعالى: ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ فأعيد تعجبًا من تقديره و كيف أعدَّ في نفسه هذا الطعن واستحق بذلك الهلاك .

٧- تعدُّد المخاطب، قال الله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فإنها وإن تعددت فكل واحدٍ منها متعلقٌ بما قبله، وإن الله تعالى خاطب بها الثَّقَلينِ من الإنس والجن، وعدَّد عليهم نِعَمَه التي خلقها لهم، فكلما ذكر فصلًا من فصول النِّعم، طلب إقرارَهم، واقتضاهم الشكر عليه، وهي أنواعٌ مختلفةٌ، وصورٌ شتَّى .

- التكرار في قصص:

لما كان من أغراض القصة في القرآن، إثبات وحدة الإله، ووحدة الدين، ووحدة الرسل، ووحدة طرائق الدعوة، ووحدة المصير الذي يلقاه المكذبون...نقول: لما كان الأمر كذلك، استدعى المنطق القرآني هذا التكرار، لتحقيق تلك الأغراض، وتثبيتها في قلوب المؤمنين، وتحذير المعاندين من مغبَّة الإعراض عنها. فنشأ عن خضوع القصة لهذه الأغراض أن يُعْرَض شريط الأنبياء والرسل الداعين إلى الإيمان بدين واحد، والإنسانية المكذبة بهذا الدين الواحد، مرات متعددة .

- وعن نوحً قال الله تعالى: { لقد أرسلنا نوحًا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذابَ يوم عظيم . قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسولٌ من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله

ما لا تعلمون أَوَ عَجبتم أن جاءكم ذكرٌ من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم تُرحمون فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قومًا عَمين} [الأَعراف ٥٩-٦٤]

– وعن هُود، قال الله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ . قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ . أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ . فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف ٦٥– ٧٢].

٣– التشابه والاختلاف:

في القرآن الكريم آيات وتعبيرات تتشابه مع تعبيرات أخرى ولا تختلف عنها إلا في مواطن ضئيلة كأن يكن الاختلاف في حرف أو كلمة. أو نحو ذلك.

وإذا تأملت هذا التشابه والاختلاف وجدته أمراً مقصوداً في كل جزئية من جزئياته قائماً على أعلى درجات الفن والبلاغة والإعجاز. وكلما تأملت في ذلك ازددت عجباً وانكشف لك سر مستور أو كنز مخبوء من كنوز هذا التعبير العظيم.

فمن ذلك استعمال لفظ (مكة) و (بكة) لأم القرى.

جاء في قوله تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ ءايات بينات مَّقَامُ إبراهيم وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت مَنِ استطاع إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ العالمين} [آل عمران: ٩٦-٩٧] .

فاستعمل اللفظ (بكة) بالباء في حين قال: {وَهُوَ الذي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ الله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً} [الفتح: ٢٤]، فاستعمل لفظ (مكة) بالميم وهو الاسم المشهر لأم القرى.

وسبب إيرادها بالباء في آل عمران أن الآية في سياق الحج: {وَلِلَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت} [آل عمران: ٩٧] فجاء بالاسم (بكة) من لفظ (البَكِّ) الدال على الزحام لأنه في الحج بيكّ الناسُ بعضهم بعضاً، أي: يزحم بعضهم بعضاً، وسميت (بكة) لأنهم يزدحمون فيها.

وليس السياق كذلك في آية الفتح، فجاء بالاسم المشهور لها أعني: (مكة) بالميم، فوضع كل لفظ في السياق الذي يقتضيه والله أعلم.

٤- السمة التهذيبية التأديبيَّة:

قال الرسول صلى الله عليه وآله: ((أدبني ربي فأحسن تأديبي))، وانطلاقا من هذا الحديث الشريف نتحدث حول ثلاث نقاط وهي ما يأتي:

النقطة الأولى: ما هي أنواع التأديب الإلهي؟

النقطة الثانية: ما هو الغرض من التأديب؟

النقطة الثالثة: ما هي أنواع العقوبة الإلهية؟

التأديب الإلهي إلى الإنسان على ثلاثة أنواع:

١) التأديب القرآني العام: وهو عبارة عن الأسلوب التربوي الذي انتهجه القرآن الكريم في تربية المسلمين ، وقد ملئ القرآن الكريم بهذا النوع في ضرب الأمثال وذكر القصص ، ومن الآيات القرآنية حول ذلك ما يأتي:

– قال تعالى في سورة النحل آية ١١٢: ((وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة))

– قال تعالى في سورة فصلت آية ٣٤: ((ولا تستوي الحسنة ولا السيئة))

– قال تعالى في سورة الشعراء آية ٨٨ و ٨٩: ((يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم)).

هذه الآيات ونظائرها تعطينا زخما عظيما من أساليب التربية والتأديب والتي تدعو الإنسان إلى نبذ الحياة الدنيا وزخرفها والتعلق بالله تعالى ومجازاة السيئة بالحسنة وما إلى ذلك:

٢) التأديب بالعقوبة: وهو من أخطر أنواع التأديب ونذكر مثالا على ذلك النوع من التأديب في بحار الأنوار عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال:

((كان لموسى بن عمران عليه السلام جليس من أصحابه قد وعى علما كثيرا ، فاستأذن موسى في زيارة أقارب له ، فقال له موسى عليه السلام: إن لصلة القرابة لحقا ، ولكن إياك ان تركن إلى الدنيا فإن الله قد حملك علما فلا تضيعه وتركن إلى غيره ، فقال الرجل: لا يكون إلا خيرا ، ومضى نحو أقاربه وطالت غيبته ، فسأل موسى عليه السلام عنه فلم يخبره أحد بحاله ، فسأل جبرئيل عليه السلام عنه فقال له: أخبرني عن جليسي ألك علم به؟ قال جبرئيل: نعم هو ذا على الباب قد مسخ قردا في عنقه سلسلة ففزع موسى عليه السلام إلى ربه وقام إلى مصلاه يدعو الله ويقول: يا رب صاحبي وجليسي فأوحى إليه يا موسى لو دعوتني حتى تنقطع ترقوتك ما استجبت لك فيه ، إني كنت حملته علما فضيعه وركن إلى غيره)).

٣) التأديب الفطري: وهو عبارة عن التأديب الإلهي الذي يغرس في فطرة العبد المؤمن ، ومنه ما روي في بحار الانوار ج٧١ ص٣٨٢ عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: ((أدبني ربي فأحسن تأديبي))

وهناك عدة أغراض من التأديب الإلهي وهي ما يأتي:

١) التكامل: لا يشترط أن يكون التأديب مقابل ذنب ارتكبه العبد ، بل قد يكون الغرض منه إعداد العبد لحمل الرسالة سواء على مستوى النبوة أو الإمامة أما ما دون ذلك فالله سبحانه وتعالى أدب رسوله لحمل الرسالة .

٢) التطهير: وقد يكون الغرض من التأديب تطهير العبد من موبقات الذنوب كما روي في بحار الأنوار ج٧٨ ص٣٢٢ عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام أنه قال: ((كلما أحدث الناس من الذنوب ما لم يكونوا يعلمون أحدث الله لهم من البلاء ما لم يكونوا يعدون)) وإنما تصيبهم الأمراض لأسباب وحكم منها ما يأتي:

أ) للتأسي والاقتداء: فهم عليهم السلام وصلوا في كل شيء إلى قمته وذروته حتى في الابتلاءات والمحن ، وكي يستلهم الناس من صبرهم على الشدائد والمحن فإن المريض عندما يتذكر مرض أيوب عليه السلام وهو نبي من أنبياء الله يزداد صبرا وتحملا لمرضه.

ب) ترتب الأسباب على مسبباتها: باعتبار انهن بشر مثلنا ، كما بين الله تعالى في سورة الكهف آية رقم ١١٠: ((قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي)) فهم يمرضون ويأكلون ويشربون كما نحن.

ج) اقتضاء الحكمة: كما في الإمام السجاد عليه السلام فإن الحكمة الإلهية اقتضت أن يكون مريضا حتى لا يقتل في كربلاء فينقطع نسل آل محمد عليهم السلام

٣) الجزاء: قد يكون التأديب جزاء للمذنبين كما دلت على ذلك كثير من الآيات القرآنية.

والعقوبة الإلهية على عدة أنواع والعقوبة تختلف باختلاف الأشخاص فإن عقوبة الكفار والمنافقين دون غيرهم وهي ما يأتي:

١) العقوبة المادية: كالمرض والقتل والسجن والتشريد والمسخ والتعذيب وغير ذلك.

٢) العقوبة المعنوية: ومن أعظمها وأشدها السلب والحرمان ، بأن يسلب الله تعالى عبده الهداية ولو لفترة محددة بسبب ذنب اقترفه ورد في أصول الكافي ج١ باب المشاكل بعلمه: ((أوحى الله إلى نبيه داود عليه السلام قال: لا تجعل بيني وبينك عالما مفتونا بالدنيا فيصدك عن طريق محبتي، فإن أولئك قطاع طريق عبادي المريدين ، إن أدنى ما أنا صانع بهم أن أنزع حلاوة مناجاتي عن قلوبهم)).